الباب الأول

اجتهـاد الأنبياء

الفصل الأول

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية في الرسول

هناك عدة مظاهر تنم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته، وتدل على أن اصطفاءه لأداء هذه المهمة القدسية لا يخرجه عن طبيعة الإنسان، يجوز عليه ما يجوز على أى إنسان آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس.

فهو يأكل قبل الرسالة وبعدها كما يأكل الإنسان، وينسل قبل الرسالة وبعدها كما ينسل الإنسان[1]، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى اعتاد أن يسلكها الإنسان فى دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه. يحترف ويتجر على نحو ما يحترف الإنسان؛ يتجر لتأمين عيشه وعيش من يعوله. يقاوم المعتدى ويهاجمه إن ظن الغلبة عليه، ويمهله إلى حين حتى يستطيع رده بشخصه أو عن طريق جمع من أعوانه.

يناضل فى الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان.. يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسبما ينجلى له من نفسه ودخيلة أمره، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسبما تتطلب الظروف والمواطن.

ولم يشأ الله أن يخرجه عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد، حسب ما فى علمه، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالته فى جيل أو فى أمة أو للناس كافة. والله تعالى قادر على أن يخرجه عن هذه الطبيعة ويمنحه من الوسائل فى

(١) فى رواية البخارى: «إنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء...».

الحياة والكفاح فيها ما ليست للإنسان. لكنه شاء جل جلاله أن يبقى رسوله للناس من الناس؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى ملَك فضلاً عن أن يصل بها إلى مرتبةٍ فوق مرتبة الرسالة والملَك..

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام فى رده على قومه لما قالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾[1]، وقوله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ...﴾[2].

وقد تعنتت كفار قريش مع نبينا ﷺ وطلبوا منه ما يدل على أنهم معاندون، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾[3].

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسى وماتوا أناسى. كلهم احترف فى سبيل عيشه، وكلهم ناضل من أجل عقيدته، وكلهم اجتهد فى تخير وسيلة العيش وطريق النضال، وكلهم أخطأ وأصاب فى اجتهاده فيما تخير من وسائل وطرق لعيشه وكفاحه[4].

وفى موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان. نعم فى غمرات الموت كانوا يتشوفون إلى لقيا الله تعالى أكثر مِنْ حنينهم للدنيا وما فيها. ذلك لأنهم ركزوا

---

(١) هود: ٣١.

(٢) الأنعام: ٥٠.

(٣) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٥.

(٤) فى الصحيح أنه ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هزلى وجدى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى».

إيمانهم فيما وراء الدنيا بحكم اختيارهم للرسالة، وإيمانهم إيمانًا كاملاً بها. وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات إن قوى أمله فيما هو آت.

وربما فى عيشهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل أكثر من غيرهم.. لأن الأنبياء ـ وكذا المصلحين فى الجماعة ـ أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلى؛ لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت فى حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات. ولا يكفى فى سرعة البت هذه حسنُ استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته. فكم فى الفيافى ورءوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة فى معالجة الأمور.

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول ـ وكذا للمصلح ـ أكثر من غيره لا نجد بين من اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب.

وكلهم من أجل عيشهم احترفوا؛ لأنهم لم يكونوا من أصحاب اليسار. وربما تشابهوا جميعًا فى مزاولة حرفة بالذات: فكثير منهم نشأ يتيمًا أو شبه يتيم، وكثير منهم قد رعى الغنم، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيرًا يأكل من أجره.

وقد تجشم رسول الله ﷺ طويل الأسفار للتجارة فى مال غيره بأجر، وذاق مرارة اليتم، وحرم حنو الوالد، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها، ومن فضائل الرجولة أعلاها، وسمت به نفسه عن مواطن الترهل والنعومة، فتسابقت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة وأخصبت عبقريته وتفتحت لإلهام السماء مشاعره ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

من الميسور للرجل أن يستغنى عن الاجتهاد، وأن ينزوى فى ناحية من نواحى الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة: فمن الميسور أن يتوارى الرجل فى جوف

(١) الأنعام: ١٢٤.

صومعة منقطعًا للتبتل والعبادة حتى يلقى الله، ومن الميسور أن ينقطع للدنيا ويوليها جميع عنايته، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلا لها ولا يفكر إلا فى جمعها معرضًا عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أبنائها أحدًا.

كما أنه من الميسور أيضًا أن يعيش الرجل فى هذه الحياة لا يهدف إلى غاية ولا يسعى إلى غرض طافيًا فوق تياراتها تقذف به مع الريح حيث دارت وكيفما اتجهت، فتارة تراه عابدًا مع العباد، وتارة فاسقًا مع الفساق، وتارة عطوفًا خيرًا، وأخرى جبارًا عتيا. وتارة ينهمك فى جمع المال، وأخرى يغرق فى السرف والتبذير. فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية. فمثل هذا إن لم يكن مجنونًا فهو أشبه بالمجانين.

كل هذا ميسور. أما أن يخوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحية من نواحيها بطرف، فيعطى ربه حقه، ونفسه حقها، وبنى جنسه حقوقهم، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم، يجامل ويواسى، ويقاطع ويخاصم، ويهادن ويحارب، كل فى حدود المصلحة العامة والعدل والعقل، وهو فى كل ذلك سَلِمَ له دينه وعرضه، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر ولا يستطيعه إلا أحد رجلين:

١ ـ رجل ألقى بنفسه بين يدى ملَك الوحى، يحركه كيف شاء، وأنى شاء. يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل. ومثل هذا لا يحتاج فى حياته إلى عبقرية ولا فكر، بل ولا إلى عقل. وهذا ما تنزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ ـ أو رجل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة ويقظة القلب وعبقرية الفهم ما سهل عليه أن يجتهد ويضع كل شىء فى محله وأن يستعمل كل شىء عند ظهور دواعيه. وهذا مقام الأنبياء والمرسلين والمصلحين.

فمن اصطفاهم الله خاضوا الحياة فى جميع نواحيها وعالجوا كل صعابها وفكروا وقدروا. وإن وقعت من بعضهم فى طريق ذلك هنات فتلك من مقتضيات طبيعة البشر، للفرق بين الرب والمربوب والإله والمألوه. إذ العصمة لا تكون إلا لله وحده.

ونحن نعلم لهذا أنه لا يكفى ليكون الرجل قائدًا مصلحًا فى كل ضرب من ضروب الحياة أن يكون حسن السيرة تقيًا ورعًا فحسب، بل لابد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة، قوى الحجة صارم العزيمة شديد الشكيمة فى تنفيذ الحق، فطنا يقظا حذرًا لا يخدع.

فكثير من الصحابة عرفوا بالصلاح والتقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلاد والحجاج والحذر: منهم أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه. فقد كان ورعًا تقيًا صالحًا خاشعًا، ومع ذلك مكر به عمرو بن العاص وخدعه فى التحكيم حتى ظفر به وغلبه.

ومنهم أبو هريرة رضى الله عنه. قد كان عابدًا حافظًا ولكن لم يبرز اسمه فى عداد شجعان الصحابة ولا ذوى الرأى النافذ فيهم. روى البخارى عن الأعرج قال: قال أبو هريرة: «إنى كنت امرأ مسكينًا أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطنى». وفى رواية قال: «قدمت إلى رسول الله ﷺ وأنا يومئذ قد زدت على ثلاثين فأقمت معه حتى مات، أدور معه فى بيوت نسائه وأخدمه وأغزو معه وأحج». وقال محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: «لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة فيقال مجنون وما بى جنون، وما بى إلا الجوع». وأخرج البغوى عن الأعمش قال: «ما كان أبو هريرة أفضل الأصحاب ولكنه كان أحفظهم».

ومنهم عبد الله بن عمر، وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أنهكته، ومع ذلك لما طُعن والدُه رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده، قال لهم: خذوا رأيه ولا يكون هو الخليفة.

ومنهم حسان بن ثابت، فقد روى ابن كثير فى تاريخه: قال عباد بن عبد الله ابن الزبير: كانت صفية بنت عبد المطلب يوم الخندق فى حصن قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون فى نحور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، فقلت: يا حسان! إن هذا اليهودى كما تراه يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءه من اليهود، فانزل إليه واقتله! قال: يغفر الله

لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما قال ذلك أخذت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته.

وإذا تطلبت صعاب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن وإعمال العقل والاجتهاد فى تخير الرأى الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسله سلامة الجسم، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة البدنية المثابرة فى التغلب على الصعاب وإيجاد حلول لمشاكل الحياة.

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعًا ذوى أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة. وربما كان لحرفهم التى زاولوها فى حياتهم قبل البعثة والتكليف بتبليغ رسالة الله دخل فى صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم. وربما كان احترافهم بها من توجيه الله لهم. فقد رعى معظمهم الغنم[1] أو زاول حرفة أخرى[2]. ولا شك أن فى رعى الغنم أو مزاولة الحرفة دربة على الصبر على العمل مهما عظم أو شق على النفس[3]، كما يحفز إلى الاستخفاف بالمكاره والإقدام عند الفزع[4].

---

(١) روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». وروى النسائى من حديث نصر بن حزن قال: «افتخر أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله ﷺ: بعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم، وبعثت أنا وأنا راعى غنم أهلى».

(٢) روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده». قال الحافظ ابن حجر: «وجاء عن ابن عباس: أن داود كان زرادًا، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجارًا، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا». قال الخطابى: إن الله لم يضع النبوة فى أبناء الدنيا والمترفين منهم، وإنما جعلها فى أهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف.

(٣) روى البخارى عن البراء بن عازب قال: «رأيت النبى ﷺ يوم الأحزاب ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه». وروى البخارى أيضًا عن جابر بن عبد الله قال: كنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لا يعمل فيها المعول) فأخبروه ﷺ، فقال: «أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر وكنا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا فأخذ ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيبًا أهيل.

(٤) روى البخارى عن أنس قال: «كان النبى ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم ﷺ وقد تحقق الخبر، وهو على فرس عرى، ما عليه سرج، وفى عنقه السيف وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا».